

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ
مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ
بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: 6]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الله تعالى له
الغنى المطلق
عن كل شيء بما
له من القدرة
المطلقة

بعد أن دُلَّ سبحانه على قدرته المطلقة بدليل مشاهد في قوله
سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى
إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: 5]؛ تأسيسًا على نفيه أن يكون له ولد،
فهو منزَّه عن ذلك؛ إذ لا حاجة له إليه؛ لأنه الغني بنفسه عن كل
شيء، ساق بعد ذلك دليلًا آخر على هذه القدرة المطلقة الدالة
على استغناؤه عن الولد؛ تعليقًا لهذا النفي أيضًا بقوله: ﴿خَلَقَكُمْ
مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ
أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ
ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾⁽¹⁾.

✽ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿نَفْسٍ﴾: أصل (نفس) يَدُلُّ عَلَى خُرُوجِ النَّسِيمِ كَيْفَ
كَانَ، مِنْ رِيحٍ أَوْ غَيْرِهَا⁽²⁾، والمعنى المحوري الذي تدور حوله كلمة
(نفس) هو: لطيف يسري في فتوق أثناء الشيء، فيصلحه، ويتيح
له التصرف⁽³⁾، والنفس: الرِّيحُ الدَّاخلُ والخارجُ في البدن من الفمِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 26 / 423.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نفس).

وَالْمُنْحَرُ، وهو كالغذاء لِلنَّفْسِ، وبانقطاعِهِ بطلانُهَا⁽¹⁾، وَالنَّفْسُ في قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الأنعام: 93] هي الروح⁽²⁾، والروح من نفخ الرِّحْمَنِ، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: 29]، والمراد بِالنَّفْسِ الواحدة نفس آدم ﷺ؛ إذ إليه يعود كلُّ النوع.

(2) ﴿زَوْجَهَا﴾: أصل (زَوْج) يدلُّ على مُقَارَنَةِ شيءٍ لشيءٍ⁽³⁾، والمعنى المحوريُّ الذي تدور حوله مادَّة (زَوْج) هو: تداخلُ بين شيءٍ وآخر حتى يشتبكا، ويختلطا، ويرتبطا معًا، ولا يقال للشيء: زَوْجٌ إلَّا وهو مرتبطٌ بآخر ارتباطًا ماديًّا أو معنويًّا، فهي تُطلق على الفرد بهذا القيد⁽⁴⁾، يقال لكلِّ واحد من القرينين من الذَّكَرِ والأنثى في الإنسان والحيوان: زَوْجٌ، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [القيامة: 39]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أزْوَاجٍ﴾، وهي الذَّكَرُ والأنثى من الأنعام، فتصير ثمانية، ويقال لكلِّ قرينين فيها وفي غيرها: زوج، كالحفَّ والنَّعل، ويقال أيضًا: لكلِّ ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضادًّا: زوجٌ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [القيامة: 39]⁽⁵⁾، ويُطلق على الأنواع المتشابهة، كقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: 53]، أي: أنواعًا متشابهة، وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: 10]، والمراد بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، أي: حواء ﷺ، فهي زوج آدم ﷺ، ومنهما نشأ الإنسان، ومنهما انتشر.

(3) ﴿الْأَنْعَامِ﴾: المعنى المحوريُّ الذي تدور حوله مادَّة (نعم) يدلُّ على رِقَّةِ الشَّيْءِ أو ليونته وخلوِّهِ مِنَ الغِلَظِ والخشونة⁽⁶⁾، وهو بهذا يدلُّ على تَرْفُّهِ وطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، وَمِنْهُ النِّعْمَةُ: ما يُنْعِمُ اللهُ تعالى على عبده بِهِ مِنْ مالٍ وعيشٍ⁽⁷⁾، والأنعام جمع (نعم)، وَالنَّعْمُ مختصٌّ بالإبل، وتسميته بذلك؛ لكون الإبل عندهم أَعْظَمَ نِعْمَةٍ، والأنعام تقال للإبل

(1) الراغب، المفردات: (نفس).

(2) الراغب، المفردات: (نفس).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زوج).

(4) جبل، للعجم الاشتقاقات: (زوج).

(5) الراغب، المفردات: (زوج).

(6) جبل، للعجم الاشتقاقات: (نعم).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).

والبقر والغنم، ولا يقال لها: أنعامٌ حتى يكون في جملتها الإبل⁽¹⁾، وهو المراد هنا، فالأنعام هنا هي: الإبل والبقر والضأن والمعز⁽²⁾.

(4) ﴿بُطُونٌ﴾: المعنى المحوري الذي تدور حوله كلمة (بطن): الجوف الداخلي للشيء؛ إذ يخفى فيه ما يدخل إليه⁽³⁾، والبطن: خلاف الظهر، وباطن الأمر: دخلته، خلاف ظاهره، ومنه قولهم لدخلاء الرجل الذين يبطنون أمره: هم بطانته، قال الله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: 118]⁽⁴⁾، والبطن الجارحة، وجمعه بطون⁽⁵⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: 32]، وقوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ البطون فيها كناية عن أرحام الأمهات؛ لأنها مكان استقرار الأجنة.

(5) ﴿ظُلُمْتَ ثَلَاثٌ﴾: يدور المعنى المحوري للفظ (الظلمة) حول: حجب ما ينبغي، أو ما يستحق وجوده أو كماله، أي: منعه أو انتقاصه، فالظلام عدم النور، والظلم عدم العدل⁽⁶⁾، وجمع الظلمة: ظلمات، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمْتَ فِي يَمْرِ يُجْيٍ﴾ [النور: 40]، وقوله: ﴿ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: 40]⁽⁷⁾، والظلمات الثلاث هي: المشيمة والرحم والبطن⁽⁸⁾.

(6) ﴿الْمُلْكُ﴾: أصل (ملك) يدل على قوة في الشيء وصحة، يقال: أملك عجيته: قوى عجنه، وشده، وملكت الشيء: قويته⁽⁹⁾، والملك بكسر الميم اسم منه، والفاعل مالك، والجمع ملأك، مثل كافر وكفار... وملك على الناس: أمرهم؛ إذا تولّى السلطنة، فهو ملك بكسر اللام، والجمع ملوك، والاسم الملك بضم الميم⁽¹⁰⁾، و(الملك) اسم من الأسماء الحسنى لله ﷻ، ومعنى ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾، أي: السلطان المطلق في الدنيا والآخرة، وليس لغيره شركة في ذلك بوجه⁽¹¹⁾.

(1) الراغب، المفردات: (نعم).

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3 / 170.

(3) جبل، اللجج الاشتقاقي: (بطن).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطن).

(5) الراغب، المفردات: (بطن).

(6) جبل، اللجج الاشتقاقي: (ظلم).

(7) الراغب، المفردات: (ظلم).

(8) ابن عطية، لحرر الوجيز: 4 / 520.

(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، اللجج الاشتقاقي: (ملك).

(10) الفيومي، الصباح النير: (ملك).

(11) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7 / 243.

(7) ﴿تُصَرَّفُونَ﴾: أصل (صرف) يدلُّ على رَجَعَ الشَّيْءِ، أو تَحَوَّلَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ صَرَفْتُ الْقَوْمَ صَرْفًا، وَاِنْصَرَفُوا؛ إِذَا رَجَعْتَهُمْ، فَارْجِعُوا⁽¹⁾، وَالصَّرْفُ أَيْضًا: رُدُّ الشَّيْءِ مِنْ حَالَةٍ إِلَى حَالَةٍ، أَوْ إِبْدَالُهُ بِغَيْرِهِ، يُقَالُ: صَرَفْتُهُ، فَاِنْصَرَفَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ إِلَى عَمْرَانَ: 152⁽²⁾، أَي: حَوْلَكُمْ عَنْهُمْ، وَالصَّرْفُ بِالْكَسْرِ الشَّرَابُ الَّذِي لَمْ يُمَزَّجْ، وَيُقَالُ لِكُلِّ خَالِصٍ مِنْ شَوَائِبِ الْكَدْرِ: صِرْفٌ؛ لِأَنَّهُ صُرِفَ عَنْهُ الْخَلْطُ⁽³⁾، وَمَعْنَى ﴿فَأَنَّى تُصَرَّفُونَ﴾، أَي: فَكَيْفَ يَعْدِلُ بِكُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ؟⁽⁴⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

من دلائل قدرته واستغنائاه سبحانه عن الولد والناصر والمعين أن خلقَ الناس من نفس واحدة، هو آدم أبو البشر، وخلق من هذه النفس زوجها حواء، ويمكن أن يكون المعنى: خلق ذكرَكم، وأنثاكم من نوع واحد.

الخالقُ سبحانه
يخلق تفضُّلاً
وإنعاماً لا أنَّه
يحتاج إلى مَنْ
خلق

فَلَمَّا ذَكَرَ خَلْقَ آدَمَ وَأَمْنَا؛ ذَكَرَ ابْتِدَاءَ خَلْقِنَا، فَقَالَ: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، أَي: يَخْلُقْكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ، وَبِأَنَّ مَنْ تَسْبُونَ لَهُ الْوَلَدَ، وَتَقْلَلُونَ مِنْ شَأْنِ قُدْرَتِهِ - فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ طَوْرًا مِنْ بَعْدِ طَوْرٍ خَلْقًا عَظِيمًا لَا يُكْتَنَى كُنْهَهُ، وَلَا تُعْرَفُ خَفَايَاهُ مِنْ خَلْقٍ عَظِيمٍ عَجِيبٍ بَدِيعٍ تَعْرِفُونَ بَعْضَ أَطْوَارِهِ، فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ: هِيَ ظُلْمَةُ الْبُطْنِ وَالرَّحِمِ وَالْمَشِيمَةِ، أَوْ هِيَ الْأَعْشِيَّةُ الدَّقِيقَةُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي تَحِيطُ بِالْجَنِينِ، فَذَلِكَ الْمُنْعَمُ بِهَذِهِ النُّعْمِ هُوَ اللَّهُ مَرْبِّيْكُمْ وَمَالِكُ أَمْرِكُمْ، لَهُ لَا لغيره الْمَلِكُ الْخَالِصُ، فَكَيْفَ يَعْدِلُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ؟⁽⁵⁾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صرف).

(2) الراغب، المفردات: (صرف).

(3) الفيومي، الصباح النير: (صرف).

(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 170.

(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 719، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن

الكريم، ص: 684.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو شروع في طرح استدلال جديد على ألوهيته ووحانيته وعلى قدرته سبحانه المطلقة التي لا يحتاج فيها إلى أحد من خلقه، وذلك أنه خلقكم - يا من تنسبون له الولد، ويا كل الناس - ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ ولذا فصلت الجملة عن سابقتها على أنها استئناف ابتدائي تكريراً للاستدلال⁽¹⁾، فترك عطفه على ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ [الزمر: 5]؛ للإيدان باستقلاله في الدلالة في عدم احتياجه ﷻ للولد⁽²⁾.

عود الضمير في ﴿خَلَقَكُمْ﴾:

الخطاب في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ لكل من يصلح له، أي: هو لعموم الناس، وهو كذلك خطاب لمن زعموا له الولد - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - كما يشعر به قوله سلفاً: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: 4]؛ إذ دُلَّ على استغنائه عن الولد بدليلين: أحدهما علويٌّ مشاهد بالنظر، وهو قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الزمر: 5]، والآخر سُفليٌّ مدرك ومعايش، وهو قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾.

الاستدلال
بطلاقة القدرة
في خلق الإنسان
والأنعام على
ألوهيته

كثرة المعاني
وصلاحية
الضمير لكل
هذه المعاني

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 331/23.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 423/26، والألوسي، روح المعاني: 230/12.

نكتة إسناد الخلق إلى ضمير العظمة الغائب:

ضميرُ الفاعل في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ يعود على الله ﷻ، وهو إسناد حقيقي؛ إذ لا منازع له في هذا من الناس جميعاً، حتى من قِبَل المشركين أنفسهم الذين اعترفوا له سبحانه بالخالقية، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: 61]، وقوله: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: 87].

معرفة الناس
للفاعل الحقيقي
بلا منازعة حتى
من المشركين

بلغة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في ﴿خَلَقَكُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الزمر: 5] الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وسرُّ هذا الالتفات أن الخطاب أقوى في الحاجة، وألفت لحصول اليقظة والانتباه، ثم هو أيضاً أشد نكاية للمعارض من المخاطبين، وذلك مبني على تصوُّر حال المشركين الذين ادعوا لله الشريك والولد، وقيل: نكتته أنه لما أخبر الله رسوله ﷺ عن المشركين، بطريق الغيبة: أقبل على خطابهم؛ ليجمع في توجيه الاستدلال إليهم بين طريقي التَّعريض والتَّصريح⁽¹⁾.

الخطاب أقوى
في حاجة
المعارض وأدعى
ليقظته وانتباهه

بلغة الإدماج في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فنُّ الإدماج، فقد أدمج في الاستدلال بخَلْقهم على وحدانيته سبحانه وقدرته المطلقة "الاستدلال بخَلْق أصلهم، وهو ﴿نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ تشعب منها عددٌ عظيم - وهي نفس آدم ﷺ - وبخلق زوج آدم؛ ليقومَ ناموس التناسل"⁽²⁾.

الجمع بين أكثر
من دليل على
شيء واحد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 331/23.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 331/23.

سرُّ التعبير بقوله: ﴿مِّنْ﴾:

الدَّلالةُ بابتداء
الخلق ومعرفة
أصله على
الألوهية

﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ابتدائية، والمعنى: ابتداء خلقكم ﴿مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وهي نفس آدم ﷺ، فكلُّ الناس يعودون لأصل واحدٍ، وهو آدم على السَّواء بلا تمايز، وفي ذلك دلالةٌ بابتداء الخلق ومعرفة أصله على استحقاق الله تعالى للألوهية والوحدانية.

نكتة تنكير النَّفس وبيان المراد بها:

تفخيمُ هذه
النَّفْس
وتعظيمها

نكَّر النَّفس الواحدة، فقال: ﴿مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ تفخيماً وتعظيماً لها؛ لكونها النَّفس التي خلقها الله بيديه، ونفخ فيها من روحه، وأمر الملائكة بالسُّجود لها، وجعلها خليفته في الأرض، وسَخَّرَ لها مخلوقاته، وهي نفس آدم ﷺ، ووصفها بكونها واحدة لتأسيس مبدأ الإخوة الإنسانية بين أبناء هذه النَّفس الواحدة جميعاً، فإنَّ البشر مهما اختلفت ألوأنهم وبيئاتهم وألسنتهم، فإنَّ مرجعهم جميعاً إلى هذه النَّفس الواحدة، فكلُّهم لآدم وآدم من تراب، فلا يستعِلُّ بعضهم على بعض؛ وإن تمايز بعضهم على بعض في أسباب الدُّنيا بالغنى والسُّلطان، وكذا في أسباب الدين بالإيمان والتقوى، لكنَّهم جميعاً في أصل الخلقة سواء.

فائدةٌ وصف النَّفس بقوله: ﴿وَاحِدَةٍ﴾:

مَنعُ تعالي
بعضِ الناس
على بعض
لتساويهم في
الإنسانية

وصف النَّفس بكونها واحدة؛ لتأسيس مبدأ الإخوة الإنسانية بين أبناء هذه النَّفس الواحدة جميعاً، وكذلك في وصف النَّفس بواحدة إدماجاً بالجمع بين العبرة والموعظة؛ لأنَّ كونها واحدة أدعى للاعتبار؛ إذ يَسْلُ من النَّفس الواحدة أبناء كثيرون حتى ربَّما صارت النَّفس الواحدة قبيلةً أو أمةً، ففي هذا الوصف تذكيرٌ بهذه الحالة العجيبة الدالة على عظم القدرة وسعة العلم حيث بثَّ من نفس واحدة رجالاً كثيراً ونساءً⁽¹⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9.

بلغة التعبير بحرف ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ على بابها من العطف والدلالة على الترتيب مع التراخي، لكنَّه الترتيب مع التراخي بكلِّ أنواعه - وهذا من جمال القرآن وبلاغته - الأوَّل: أن يكون الترتيب مع التراخي في الرُّتبة؛ إذ بين طريقة خلق كلِّ منهما ما يدلُّ على طلاقة القدرة، مع أنَّهما من جنس واحد، وذلك لكونه قد سبق مساق الاستدلال على وحدانيَّة الله تعالى وإثبات قدرته المطلقة التي يستغني بها عن الشريك والولد، فالعطف هنا من باب عطف الجمل؛ إذ عطف ﴿جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ على جملة ﴿خَلَقَكُمْ﴾، الثاني: أن يكون الترتيب مع التراخي على أصله في الزَّمان، وذلك أنَّه يُروى أنَّه تعالى أخرجنا من ظهرِ آدمَ كالذَّرِّ، ثم خَلَقَ حواءَ بعد ذلك بزَّمانٍ، الثالث: أن يكون الترتيب مع التراخي على أصله في الزَّمان أيضًا، ولكن لمَدركٍ آخر: وهو أن يُعْطَفَ بها ما بعدها على ما فُهِمَ من الصِّفة في قوله: ﴿وَاحِدَةً﴾؛ إذ التقدير: من نفسٍ تَوَحَّدَتْ، أي: انفَرَدَتْ، ثم جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا، يعني: شفَعها الله بزواج، فصار مع زوجه اثنين، وزالت عنها صفة الانفراد، الرابع: أن يكون مع التراخي في الأخبار لا في الزَّمان الوجوديَّ، كأنَّه قيل: كان مِنْ أمرها قبل ذلك أن جعل منها زوجها. الخامس: أن يكون الترتيب مع التراخي في الأحوال والرُّتَب.

قال الزمخشري: "فإن قلت: وما وجهُ قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وما يُعطيه من التراخي؟ قلت: هما آيتان من جملة الآيات التي عَدَّها دالًّا على وحدانيَّته وقُدْرَتِهِ، بتشعيب هذا الخلقِ الفائتِ للحَصْرِ من نفسِ آدمَ ﷺ وخلقِ حواءَ من قُصِيرَاهُ، إلَّا أنَّ إحداهما جعلها الله عادةً مستمرَّةً، والأخرى لم تَجَرِّ بها العادة، ولم تُخَلَقْ أنثى غيرُ حواءَ من قُصِيرَى رجلٍ، فكانت أدخل في كونها آيةً، وأجْلَبَ

الدلالة بكل
أنواع التراخي
في طريقة خلق
كلِّ منهما على
وحدانيَّة الله
تعالى

تعدد الآيات من
دلائل الوحدانية

الدلالة على
الاختلاف في
الخلق بين
آدم وحواء،
ولإشارة إلى
الغرض من
خلقها له

لَعَجِبَ السَّامِعُ، فَعَطَفَهَا بِ «ثُمَّ» عَلَى الْآيَةِ الْأُولَى؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَبَايِنَتِهَا فَضْلاً وَمَزِيَّةً، وَتَرَاخِيهَا عَنْهَا فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى زِيَادَةِ كَوْنِهَا آيَةً، فَهِيَ مِنَ التَّرَاخِي فِي الْحَالِ وَالْمَنْزِلَةِ لَا مِنَ التَّرَاخِي فِي الْوُجُودِ⁽¹⁾.

نكتة العدول عن لفظ الخلق إلى الجعل في «ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا»:

الفعل «جَعَلَ» يَدُلُّ عَلَى أَحَدٍ مَعْنِيَيْنِ فِي الْغَالِبِ: إمَّا أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى: خَلَقَ، أَوْ تَكُونَ بِمَعْنَى: صَيَّرَ، وَغَيَّرَ، وَهِيَ هُنَا بِالْمَعْنَى الْأُولَى، أَيْ: بِمَعْنَى (خَلَقَ)، وَقِيلَ: إِنَّهَا هُنَا بِالْمَعْنَى الثَّانِي، أَيْ: بِمَعْنَى: (صَيَّرَ وَغَيَّرَ)، وَعَلَى كِلَا الْمَعْنِيَيْنِ فَنَكْتَةُ الْعُدُولِ إِلَى التَّعْبِيرِ بِهَا هُنَا دُونَ التَّعْبِيرِ بِ (خَلَقَ)؛ لِأَنَّ خَلَقَ حَوَاءَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ ضَلَعِ آدَمَ ﷺ عَلَى الْمَشْهُورِ، فَهُوَ عَلَى هَذَا إِنْشَاءُ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ، فَكَأَنَّهُ فِي ضَمْنِهِ⁽²⁾، وَلِذَا عَبَّرَ بِالْجَعْلِ هُنَا بَدَلَ الْخَلْقِ، وَقِيلَ: عَبَّرَ فِي جَانِبِ الْأُنْثَى بِفَعْلٍ جَعَلَ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ خَلَقِ الْأُنْثَى - عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ عَلَيْهَا - جَعْلُهَا زَوْجًا لِلذَّكَرِ، وَلَيْسَ مَجَرَّدُ الْإِخْبَارِ عَنْ كَوْنِ اللَّهِ خَلَقَهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ عَلِمَ مِنْ قَوْلِهِ: «خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ»⁽³⁾، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ خَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ضَلَعِ آدَمَ أُدْخِلَ فِي كَوْنِهِ آيَةً بَاهِرَةً دَالَّةً عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ؛ لِأَنَّ خَلَقَ آدَمَ كَانَ عَلَى عَادَةِ اللَّهِ الْمُسْتَمِرَّةِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ ابْتِدَاءً، وَخَلَقَهَا عَلَى الصِّفَةِ الْمَذْكُورَةِ لَمْ تَجْرِ بِهِ عَادَةٌ، لِكَوْنِهِ لَمْ يَخْلُقْ سُبْحَانَهُ أَنْثَى مِنْ ضَلَعِ رَجُلٍ غَيْرِهَا⁽⁴⁾.

نكتة التعبير ب (من):

(مِنْ) فِي قَوْلِهِ: «ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» تَبْعِيضِيَّةٌ عَلَى الْقَوْلِ الْمَشْهُورِ فِي خَلْقِ حَوَاءَ، وَأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ ضَلَعِ آدَمَ ﷺ، أَوْ أَنَّهَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ، أَيْ: وَخَلَقَ لَهَا مِنْ جِنْسِهَا زَوْجَهَا.

الجمع
بين البيان
والتبويض
بكلمة واحدة

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 113، 114، والسمين، الدر المنثور: 9/ 409، 410.

(2) القنوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 479.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 211.

(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 517.

نكتة إثارة ضمير المؤنث على الذكر:

أعاد الضمير على النفس مؤنثاً ﴿مِنْهَا﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ مع جواز إعادته مذكراً؛ إذ التأنيث في النفس مجازي، وذلك للإشارة إلى ضعف تلك النفس المخلوقة في ذاتها وأمام نفسها، فالإنسان عاجز ضعيف؛ وإن تناهت قوّته، وبلغت الذروة قدرته، لسبق قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: 28)، بل قيل: إنه أضعف الموجودات⁽¹⁾.

الدلالة على
الضعف باعتبار
النفس

غرض تقديم شبه الجملة على المفعول:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الجعل إمّا أنه بمعنى التصيير، فقوله تعالى: ﴿زَوْجَهَا﴾ مفعوله الأول، والثاني: هو الطرف المقدم، وإمّا بمعنى الإنشاء، والطرف متعلق بـ ﴿جَعَلَ﴾ قُدّم على المفعول الصريح من باب الاعتناء بالمقدم، والتشويق إلى المؤخر⁽²⁾.

الاهتمام
والاعتناء بالمقدم
والتشويق إلى
المؤخر

بلاغة تذكير الزوج في قوله تعالى: ﴿زَوْجَهَا﴾:

خلق الإنسان ضعيفاً، والمرأة أضعف نوعيه، ولا يقوى ذلك الضعف الذي تتصف به المرأة إلا برجل تتقوى بسببه من أب أو أخ أو زوج أو ابن، ومن أجل ذلك فإنها تُسبب إلى مصدر قوتها، فيقال: امرأة فلان، أو ابنته، أو أخته، أو تكنى بابنها، فيقال: أم فلان، ولا تكاد تُذكرُ باسمها إلا لحكمة كريم ﷺ، وأعظم قوّة تستمدّها المرأة من هؤلاء إنّما تكون من الزوج، لأجل ذلك لما ذُكرت حواء في الآية بوصف الزوجية؛ قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، ولم يقل: زوجتها؛ لما في التذكير من معنى القوّة ما فيه، وقد استمدّت هذه القوّة من إضافتها إلى زوجها.

أقوى ما تكون
المرأة حين تكون
زوجاً

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/ 222، والبقاعي، نظم الدرر: 22/ 59.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 303.

نكتة إضافة الزوج إلى ضمير النفس:

في إضافة الزوج إلى ضمير النفس في قوله: ﴿زَوْجَهَا﴾ إشارة إلى العلاقة القدرية الوطيدة بين الأنثى والذكر الذي هو زوجها، لا سيما أنها خلقت من ضلع أعوج، وأعوج ما في الضلع أعلاه، وفي هذه الإضافة ما يشعر بأن كلا منهما خلق للآخر، وأنه لا يستغني أحدهما عن الآخر.

بلغة العطف بالواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾:

لما بين الله تعالى طلاقة قدرته، وإبداعه في خلق آدم من العدم - والذي هو أصل الإنسان - وخلق زوجة منه، مشيرًا إلى تناسل سائر الخلق منهما، عطف عليه ما يدل على طلاقة قدرته وإبداعه في خلق جنس آخر من المخلوقات السفلية، وهو الأنعام، للاستدلال بطلاقة قدرته تعالى في خلق كل من الجنسين على استحقاقه تعالى وحده الألوهية والوحدانية، وعدم احتياجه للولد.

بلغة التعبير باللام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾:

اللام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ هي لام التعليل والأجل، أي: أنزل لأجلكم أنتم دون غيركم، وفي ذلك من الدلالة على عظم الامتنان والإنعام ما فيه.

نكتة تعدية فعل الإنزال باللام دون (على):

إنما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾، ولم يقل: وأنزل عليكم؛ للدلالة على أمور، منها: تسخير الله الأنعام للإنسان، فإنها مخلوقة لكم، ومن أكلكم وحدكم، وذلك للارتفاع بها دون غيركم، وأما استفادة غير الإنسان من الأنعام؛ فهو اعتداء على حق الإنسان والأنعام غالبًا، ومنها: الإشارة إلى استعلاء الإنسان على سائر المخلوقات، بأن اختصه بخلق الأنعام من أجله، ودللها له، ومنها: الإشارة إلى الإنعام على الإنسان بالأنعام، بل هي من أعظم النعم.

قوة العلاقة
القدرية الوطيدة
بين الذكر
والأنثى

الجمع بين
دلائل قدرة
الله في أنواع
المخلوقات
للاستدلال بذلك
على الألوهية
والوحدانية

الدلالة على
تسخير الأنعام
للإنسان
واستعلائه على
سائر المخلوقات

بلغة تقديم شبه الجملة على المفعول الصريح في قوله: ﴿لَكُمْ﴾:

من أغراض تقديم ما حقه التأخير الحصر والتخصيص، أي: خلقها، وأوجدها، وأنزلها لكم وحدكم دون غيركم، وخصكم بها من دون سائر المخلوقات، ويمكن أن يكون غرض التقديم هو تعجيل المسرة.

نكتة تقديم شبه الجملة على المفعول في قوله: ﴿مِنَ الْأَنْعَمِ﴾:

قدّم شبه الجملة على المفعول الصريح في قوله: ﴿مِنَ الْأَنْعَمِ﴾ من باب الاعتناء بما قدّم، والتشويق إلى ما أخر، فإنّ كون الإنزال لمنافعهم، وكونه من الجهة العالية من الأمور المهمة المشوّقة إلى ما أنزل - لا محالة⁽¹⁾ - كأنّه لما قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَمِ﴾؛ اشترأت أعناق المخاطبين، وطمعت نفوسهم في معرفة ما امتنّ الله به عليهم من الأنعام، وما خصّهم به منها وحدهم دون غيرهم، فكانت ﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ﴾.

بلغة الإدماج في فعل الإنزال:

في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَمِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ﴾ فنّ الإدماج؛ إذ أدمج في هذا الاستدلال الامتنان بإنزال الأنعام، وما خلقه فيها من منافع وفوائد لا يستغني عنها الإنسان؛ لأنّ بها قوام حياته؛ إذ يأكل لحومها، ويشرب ألبانها، كما أنّه يحصل بواسطتها قضاء مصالحه من التّنقل والرّكوب، وكذا بناء بيوت الشّعير منها، والاستدفاء من برد الشّتاء بغزل أصوافها وأوبارها، وغير ذلك من المنافع والفوائد في غرض الاستدلال بإنزالها على الوحدانيّة والقدرة. وقد ذكر الله تعالى كثيرًا من هذه الفوائد في مواضع أخرى من القرآن، ومنها ما في سورة النحل في قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ

تخصيص
الإنسان وحده
بمنافع الأنعام

قدّم شبه
الجملة اعتناء
بالمقدّم وتشويقاً
إلى المؤخّر

إدماج الامتنان
بفوائد الأنعام
في الاستدلال
بذلك على
الوحدانيّة
والقدرة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 243 / 7.

تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلِغِيهِ إِلَّا بَشَقِّ الْأَنفُسِ
 إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ [النحل: 5-7]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ
 بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ
 ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً
 إِلَىٰ حِينَ ﴿٨﴾ [النحل: 80].

نكتة التعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾:

بيان الامتنان
 بالأنعام

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ الأصل فيها أنها للابتداء، أي:
 بدأ الإنزال بالأنعام، ويمكن أن تكون للبيان، أي: أنزل لكم الأنعام
 نعمة منه تعالى وتفضلاً وامتناناً⁽¹⁾.

بلاغة التعبير بـ (ال) في ﴿الْأَنْعَامِ﴾:

شمول معنى
 (ال) لكل
 من الجنس
 والاستغراق
 والنوع والعهد

(ال) في ﴿الْأَنْعَامِ﴾ يمكن أن تكون للجنس، أو للاستغراق، أو
 للعهد، أي: وأنزل لكم أنتم وحدكم من جنس الأنعام، أو: من أنواع
 الأنعام، أو: من سائر الأنعام، أو: من الأنعام المعروفة عندكم،
 المعهودة لكم ﴿تَمَنِّيَةَ أَزْوَاجٍ﴾.

سر التعبير بصيغة ﴿أَزْوَاجٍ﴾:

الدلالة على قلة
 هذه الأنواع من
 الأنعام

صيغة الجمع (أفعال) من الجموع التي تدلُّ على القلة، وبهذه
 الصيغة يشير التعبير القرآني إلى قلة هذه الأزواج، فهي ثمانية
 أزواج من أربعة أنواع فقط، لكنها من جهة تتكاثر بسرعة حتى
 تعظم، على ما يأتي بيانه في بلاغة تكثير الأزواج.

بلاغة تذكير الأزواج:

الأزواج جمع زوج، والزوج مذكر، ونكتة التعبير بهذا اللفظ
 الدلالة على أن هذه الأنواع من الأنعام تتكاثر بسرعة، على تفاوت
 فيما بينها في سرعة هذا التكاثر، فتقوى في ذاتها بكثرتها، وتعظم

(1) القونوي، حاشية على تفسير البضاوي: 481/16.

في عين صاحبها، وعين كل من رآها، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: 6]، ويترتب على ذلك قوة صاحبها بكثرتها وعظمتها، وذلك مصدر من مصادر القوة الاقتصادية، ثم إن هذه الأنعام قوية في ذاتها، على تفاوت فيما بينها في تلك القوة، ثم تزداد قوتها بكثرتها، وللإشارة إلى أن كلا من الزوجين يقوى بصاحبه؛ إذ يكون كل منهما سنداً للآخر، مؤنساً له، معتنياً به، حتى في الأنعام.

نكتة تنكير ﴿أَزْوَاجٌ﴾:

ونكتة تنكير ﴿أَزْوَاجٌ﴾ الدلالة على التنوع في الأنعام، والتنوع في نوعي كل منهما من الذكر والأنثى، وبذلك تشير إلى أنواع الأنعام الأربعة من جهة (الإبل والبقر والضأن والماعز)، وتشير كذلك إلى نوعي كل صنف منها من جهة أخرى، وهما الذكر والأنثى، ويدل التنكير أيضاً على التكثير والتعظيم، فإن هذه الأنواع من الأنعام تتكاثر بسرعة، على تفاوت فيما بينها في سرعة هذا التكاثر، فتعظم في عين صاحبها، وعين كل من رآها، على ما سبق بيانه.

نكتة فصل قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾:

نكتة فصل جملة: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ عن سابقتها هو ما بين هاتين الجملتين من كمال الاتصال والاتحاد والترابط في المعنى بين الجملتين، مع زيادة بيان وتفصيل في الجملة الثانية؛ لأن هذه الجملة بدل من قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾⁽¹⁾، ولأجل هذا الاتصال والاتحاد والترابط جعلها البعض مستأنفة⁽²⁾؛ لبيان ما أجمل في الجملة الأولى وتفصيله، أي: لما كان تكوينهم في تطويرهم عجباً؛ استأنف مبيناً بالاستئناف ما أجمل في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾⁽³⁾.

الدلالة على
القوة الذاتية في
الأنعام والقوة
الناشئة عن
كثرتها وعظمتها

التنوع والتكثير
والتعظيم

الاتصال
والاتحاد
والترابط في
المعنى بين
الجملتين،
فالثانية بيان
وتفصيل للأولى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23 / 333.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7 / 243.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16 / 457.

الإشارة إلى أنَّ
الأنعام تشبه
الإنسان في
كثير من أحوال
الخلق وأطواره

إفادة التجدد
والاستمرار،
واستحضار
الصورة العجيبة
في تكوين الخلق
وتطوره

سر تأخير جملة: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾:

إنما جاءت جملة: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ متأخرة بعد ذكر إنزال الأنعام، ولم تأتِ بعد ذكر خلق آدم وحواء مباشرة؛ للإشارة إلى أنَّ الأنعام تشبه الإنسان في كثير من أحوال الخلق وأطواره، كخلقه من نطفة، وخلقه في بطن أمه، وفي طريقة ولادته، وغير ذلك، أي: يقدر إيجادكم أنتم والأنعام على ما أنتم عليه من أخلاط العناصر⁽¹⁾ في بطون أمهاتكم.

دلالة التعبير بالفعل المضارع في ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾:

التعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾؛ لإفادة التجدد والتدريج في الخلق مع تكرار ذلك واستمراره، واستحضار صورة هذا التطور العجيب⁽²⁾ للخلق، كما فصلته سورة (المؤمنون) في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٤ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۝١٥ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٦﴾ [المؤمنون: 12 - 14]، وكذا بيّنه النبي ﷺ في قوله: (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بطنِ أمِّه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً، فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ووزقه وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح)⁽³⁾.

نكتة إسناد الفعل إلى ضمير الفاعل المستتر:

ضميرُ الفاعل في قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ هو الله ﷻ، وهو إسناد حقيقي، لا منازعة لأحد فيه من الناس جميعاً، حتى من قبل الكفار والملحدين.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 457.

(2) الألويسي، روح اللعاني: 12/ 231، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 333.

(3) صحيح البخاري، حديث رقم: (3208).

نكتة جعل ضمير المفعول للمخاطبين في ﴿يَخْلُقْكُمْ﴾:

ضميرُ المخاطبين هنا مراد به عموم الناس، أو مراد به عموم كل من يصلح له الخطاب، أو: هو خاصٌّ⁽¹⁾ بمن اهتمَّ السياق بمخاطبتهم ومحتاجتهم، وهم المشركون، وعلى كل هذه الأقوال فهو استدلالٌ جديد مستقل عن سوابقه، وهو الاستدلال بتطور خلق الإنسان على عظيم قدرة الله وحكمته ودقائق صنعه⁽²⁾ وإبداعه في خلقه، الدال على انفراده بالألوهية، وعدم احتياجه للولد.

الاستدلال
بتطور خلق
الإنسان على
عظيم قدرة الله
وطاقتها

دلالة ذكر الظرفية ﴿فِي﴾:

إنَّما جاءت ﴿فِي﴾ الدالة على الظرفية المكانية في قوله: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾؛ للدلالة على إحاطة البطن لأطوار خلق الإنسان العجيبة وتمكُّنها منه، أي: إنَّ بطونَ الأمَّهات محيطة بهذا المخلوق العجيب منذ بداية خلقه، وتمكُّنه منه، بحيث تحافظ عليه، فلا يصيبه أذى أو ضرر، وهي من جانب آخر جاءت لإفادة التصوير، فنصَّ عليها لما فيها من تصوير لحالة التخلُّق الواردة في الآية ليتأمل ذلك، ومن فوائد هذا التخصيص كذلك الدلالة على أنَّ المراد في الآية هو الخلق الذي بدأ مع نسل آدم ﷺ، وليس المراد الخلق الأول للإنسان الأول، فإنَّه كان من طين بالأمر (كن)، ويشرح الفرق بين الخلقين قوله سبحانه: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِيَّهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ﴾ [السجدة: 7 - 9]، ثم إنَّه لم يكن قبل آدم ﷺ بطن امرأة حتى يُخلَق هو فيها.

الدلالة على
الإحاطة
والتَّمكُّن

بلاغة التعبير بالبطون في قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾:

عبَّر القرآن بالبطون في قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾:

(1) الألوسي، روح المعاني: 12 / 231، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23 / 333.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23 / 333.

الدلالة على
خفاء الخلق
واستتاره مع
عظمه وإبداعه

للدلالة على خفاء الخلق واستتاره مع عظمه وإبداعه؛ إذ الباطن هو الخفي المستتر، وهو عكس الظاهر، فكأنه قال: يخلقكم في مكان خفي مستتر مظلم، مع كون هذا الخلق في قمة الإبداع، لا يستطيع أكثركم رؤية ما فيه، فضلاً عن خلق أقل شيء من مثله؛ إذ إن خفايا هذا الخلق وخباياه داخل البطن لا تصل إليه يد مخلوق، ولم يدع أحد فعل مثله⁽¹⁾.

فائدة ذكر البطون والأمهات بصيغة الجمع:

الإشارة إلى
عموم ذلك في
كل الناس

إنما جاء لفظ البطون والأمهات جمعاً؛ ليوافق جمع المخاطبين في قوله تعالى: ﴿يَخْلُقْكُمْ﴾، ومعروف أن مقابلة الجمع بالجمع تنتج القسمة آحاداً، فكأنه قال: يخلق كل واحد منكم في بطن أمه، وهذا الخلق والإبداع سنة مطردة، لا يشذ عنها واحد منكم إلا على سبيل يريدتها الله تعالى أعجب في القدرة من هذا الخلق المطرد كخلق آدم ﷺ وحواء وعيسى ﷺ.

نكتة إضافة لفظ الأمهات إلى ضميرهم:

الحث على
التفكير في الخالق
الذي يرعاهم في
مراحل خلقهم

إضافة لفظ الأمهات إلى ضمير المخاطبين هي إضافة تخصيص، أي: يخلقكم في بطون أمهاتكم أنتم، وهي إضافة حقيقتية، وفيها من الدلائل حث هؤلاء المخاطبين على التفكير في أطوار تخلقهم وهم أجنة في بطون أمهاتهم، ومن الذي كان يرعاهم في هذا العالم المظلم حتى خروجهم إلى الحياة.

نكتة التعبير بالفعال المطلق ﴿خَلَقًا﴾:

التعجب من
الإبداع في الخلق

قوله تعالى: ﴿خَلَقًا﴾ مفعول مطلق مبين لحال الخلق عمومًا، ثم دال على ما بين الخلقين من الاختلاف الشديد في الخلق والإبداع: الأول له أطواره المعروفة، المنتهية بالعظام التي كساها الله تعالى باللحم، والدال على طلاقة القدرة، والثاني: له أسرار المكنونة،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 457.

بما فيها من نفخ الروح، التي هي من أمر الله، وهذا الخلق أعجب من الخلق الأول في الدلالة على طلاقة القدرة والقهر والإبداع⁽¹⁾، ولذلك بدأ به في الذكر، مع أنه متأخر في الوجود، والذي يؤكد هذا أن العلم مهما تقدّم لا يستطيع أن يعرف أي شيء من أسرار الخلق الثاني الذي يُنفخ فيه الروح، بينما استطاع بما لديه من نوع تقدّم أن يطّلع على بعض خفايا الخلق الأول وأسراره.

نكتة ذكر ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾:

إنما أوتّر ذكر ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ مع جواز الاستغناء عنها في كلام البشر؛ إذ يمكن أن يقال: خلقاً بعد خلق؛ للدلالة على كثرة تنقّلات الأطوار وتقلّبات الأدوار في الخلق الأول والثاني، وتكوينه شيئاً بعد شيء⁽²⁾، أمّا الخلق الأول؛ فقد أخبرنا الله بتلك الأطوار والتقلّبات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلَقَةً مُضْغَةً فَخَلَقْنَا أَلْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْإِطْلَاقَ لَحْمًا﴾ [الؤمنون: 12 - 14]، وأمّا الخلق الثاني؛ فقد أجملها الله تعالى، ولم يبيّنّها، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾.

فائدة ذكر الظرف ﴿بَعْدِ﴾:

عبّر بـ ﴿بَعْدِ﴾ الظرفية الزمانية؛ للدلالة على الترتيب، فإنّه مقصود، وذلك أنّ الخلق الثاني مترتب على الخلق الأول، وأنّ أطوار الخلق الأول مترتب بعضها على بعض، فحين ينتهي كلُّ طور يأتي ما بعده، وحين تنتهي أطوار الخلق الأول يأتي بعده الخلق الثاني.

نكتة تنكير ﴿خَلْقٍ﴾:

نكر كلمة ﴿خَلْقٍ﴾ للتعجيب والتعظيم والتهويل من أطوار الخلق

الدلالة على كثرة
تنقّلات الأطوار
وتقلّبات الأدوار
في الخلق

الإشارة إلى ترتّب
أطوار الخلق
الأوّل بعضها
على بعض

(1) البقاعي، نظم الدرر: 457/16.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 457/16.

التَّكْنِيزُ لِإِرَادَةِ
التَّعْجِيبِ
وَالْتَّهْوِيلِ مِنْ
أَطْوَارِ الْخَلْقِ
الْأَوَّلِ

الأوَّل، أي: من بعد خلقٍ عجيبٍ عظيمٍ لا يقدر أحد، كائنًا من كان، على الإتيان بشيء منه، ولا ادَّعائه لنفسه، وللدَّلالة على تنوُّع أطواره العجيبة الدَّالة على طلاقة القدرة، وقد جاء تفصيل ذلك في قوله سبحانه: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّثَبِّينَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: 5].

فائدة ذكر شبه الجملة في قوله: ﴿مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾:

تنوُّع المعاني
الممكنة وكثرتها
تبعًا لموقع شبه
الجملة

شبه الجملة: ﴿مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ صفة لموصوفٍ محذوف، وهذا الموصوف المحذوف صفة لقوله: ﴿خَلَقًا﴾، والحذف في الموصوف سببٌ لزيادة المعاني وكثرتها فيه، أي: خلقًا كائنًا من بعد خلق، أو: خلقًا عجيبًا من بعد خلق، أو: خلقًا بديعًا من بعد خلق، وهكذا.

دلالة الظرفية في قوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾:

الدَّلالة على
الإحاطة
والتَّمكُّن

قوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ جاء مُصَدَّرًا بـ ﴿فِي﴾ المفيدة للظرفية المكانية، وفيه دلالة على الإحاطة والتَّمكُّن، أي: تمكُّن الرَّحْم من الإحاطة بالجنين بحيث لا يخترقه ما يضرُّه؛ إذا أراد الله له اكتمال التخلُّق.

بلاغة التعبير بلفظ الظلمات:

في ذكر هذه الظلمات بهذا اللفظ تنبيهٌ على سعة علم الله تعالى وإحاطته بالأشياء، ونفوذ قدرته إليها في أشد ما تكون فيه من الخفاء⁽¹⁾.

دلالة جمع ﴿ظُلُمَاتٍ﴾ جمع مؤنث سالم:

الدَّلالة على
عِظَم هذه
الظُّلمات على
قَلَّة عددها

ذكر القرآن ﴿ظُلُمَاتٍ﴾ جمع مؤنث سالم؛ للدَّلالة على قَلَّة عددها؛ إذ إنَّ جمع المؤنث السالم من جموع القلَّة، ويؤكد هذه القلَّة وصفُ الظلمات بكونها ثلاثًا فقط، ومع أنَّها ثلاث فقط؛ فهي عجيبة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 334 / 23.

عظيمة، فإنَّ كلَّ واحدة منها تكفي في الدلالة على كثير الخفاء والاستتار مهما تقدَّم العلم، فكيف بها لو اجتمعت؟.

نكتة تنكير ﴿ظَلَمْتَ﴾:

النُّكْتَةُ في تنكير لفظ ﴿ظَلَمْتَ﴾ هو الدلالة على شدَّتها في خفاء ما فيها مجتمعةً، هذه الشدَّة المرتبة على شدة كلِّ واحدة منها منفردة، فكيف بها مجتمعة في ثلاث متراكمة بعضها فوق بعض؟ فالتنكير لتعظيمها وتفخيم شأنها.

الدَّلالة على
عِظَمِها وشدَّتِها

نكتة تأخير العدد عن المعداد:

أخَّر العدد وقَدَّم المعداد مع جواز العكس؛ لأنَّ المقصود الأهم هو لفت النَّظر إلى هذه الحصون التي يُغَلَّف بها الجنين حمايةً له، وأمَّا عددها؛ فيأتي في المرتبة التالية من الاهتمام، وهو كونها ثلاثاً.

لفت النَّظر إلى
هذه الحصون
التي يُغَلَّف بها
الجنين حمايةً
له

نكتة فصل قوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾:

فصل قوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ على الاستئناف الابتدائي، ومحلُّه الرَّفع على الابتداء، أي: ﴿ذَلِكُمْ﴾ العظيمُ الشَّأنِ الَّذِي عددت أفعاله، فكانت أدلَّة على استحقاقه الألوهية والتَّوحيد، وعلى عدم احتياجه للولد هو ﴿اللَّهُ﴾⁽¹⁾، وقيل: فُصلت هذه الجملة عمَّا قبلها؛ لكونها خلاصةً لكلِّ ما مضى من الأدلَّة السابقة، ونتيجة أنتجتها⁽²⁾.

الانتقال من
الإتيان بالدليل
إلى الإتيان
بالمادول

فائدة التعبير باسم الإشارة للبعد:

التَّعبير باسم الإشارة لتمييز صاحب تلك الصِّفات عن غيره، وما في اسم الإشارة من اللَّام التي تدلُّ على البعيد؛ للدلالة على علوِّ مكانته، وبُعد منزلته تعالى في العظمة والكبرياء⁽³⁾، أي: ذلکم الله تعالى

الدَّلالة على بُعد
منزلته تعالى
وعلوِّ مكانته

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 243 / 7.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 334 / 23.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 243 / 7.

صاحب تلك الصفات العلا، والأفعال العجيبة السابقة المذكورة العالي
المراتب بشهادتكم أيها الخلق كلكم، بعضكم بلسان قاله، وبعضكم
بناطق حاله، الذي جميع ما ذكر من أول السورة إلى هنا أفعاله⁽¹⁾، هو
الله البعيد عن كل شبهة تذكرونها، والمتعالي عن كل باطل تنسبونه
له، كنسبة الولد له، واتخاذ الشركاء معه، وهو كذلك العالي المنزلة
والمكانة بذاته، الذي لا يدانيه غيره، ولا يقترب منه في علوه سواء.

نكتة التعبير باسم الإشارة الجمعي «ذَلِكَمُ اللَّهُ»:

الإشارة إلى
تعدد صفاته
وأفعاله
سبحانه الموجهة
للمبالغة في
تعظيمه وشكره

في التعبير باسم الإشارة الجمعي «ذَلِكَمُ» في قوله تعالى:
«ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ» إشارة إليه تعالى باعتبار أفعاله المتعددة
الكثيرة المذكورة، الموجهة للمبالغة في تعظيمه وشكره، وما فيه من
معنى البعد للإيدان ببعد منزلته تعالى في العظمة والكبرياء⁽²⁾،
كما أن التعبير باسم الإشارة لتمييز صاحب تلك الصفات، وهو
الله تعالى، عن غيره، تمييزاً يفضي إلى ما يرد بعد اسم الإشارة،
والمعنى: «ذَلِكَمُ» الذي خلق، وسخر، وأنشأ الناس والأنعام
أطواراً، تعالى عما تقولون علواً كبيراً، فلا تشركوا معه غيره؛ إذ لم
تبق شبهة تعذر أهل الشرك بشركهم⁽³⁾.

نكتة الإتيان باسم الجلالة:

استحضار
المسمى بما
فيه من صفات
الجلال والكمال
والجمال

وقد عبّر باسمه تعالى العلم في قوله: «ذَلِكَمُ اللَّهُ»؛ بما فيه من
صفات الجلال والكمال والجمال، وبما فيه من المهابة التي تستولي
على القلوب، كل ذلك لاستحضار المسمى في الأذهان باسم مختص
به تعالى؛ زيادة في البيان؛ لأن حال مخاطبين نزل منزلة حال من
لم يعلم أن فاعل تلك الأفعال العظيمة هو الله تعالى⁽⁴⁾.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16 / 458.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7 / 243.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7 / 243، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23 / 334.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23 / 334.

نكتة التعبير بالربوبية بعد اسم الجلالة:

يجوز أن يكون اسم الجلالة خبراً لقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾، و﴿رَبُّكُمْ﴾ نعتٌ له، أو بدلٌ منه، ويجوز أن يكون اسم الجلالة بدلاً من ﴿ذَلِكُمْ﴾، و﴿رَبُّكُمْ﴾ خبره، وعلى كل الأوجه الممكنة في الإعراب، ففي الإتيان بالربوبية بعد اسم الجلالة الجمع بين معاني الألوهية والربوبية، والاستدلال بأفعال الربوبية على استحقاقه تعالى للألوهية، فالمستحق للتوحيد والانفراد بالعبودية هو المربي بصغار النعم قبل كبارها، وفي ذلك تذكير بنعمه تعالى الكثيرة العظيمة، من الإيجاد والإمداد وغير ذلك، وهذا هو معنى الربوبية⁽¹⁾.

فائدة إضافة لفظ الربوبية إلى ضمير المخاطبين:

في الإتيان بلفظ الربوبية مضافاً إلى ضمير المخاطبين ﴿رَبُّكُمْ﴾ تذكيرٌ لهم بنعمه تعالى الكثيرة العظيمة، كالإيجاد والإمداد الذي هو معنى الربوبية، وتوطئةٌ للتسجيل عليهم بكفران نعمته الآتي في قوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [النم: 7]، ولتنزيلهم بسبب شركهم معه غيره، تنزيل الجاهل بالربوبية، أي: الخالق والمالك والمربي لكم بالخلق والرزق⁽²⁾.

الغرض من تعريف المبتدأ والخبر في قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾:

في تعريف المبتدأ والخبر على كل الأوجه الإعرابية الممكنة في الجملة الاسمية: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ قصر كل الصفات والأفعال العجيبة السابقة، التي هي من معاني الربوبية، على موصوفٍ واحدٍ، وهو الله تعالى، دون غيره، واختصاصه سبحانه بها وحده، أي: ذلكم هو الله المستحق للوحدانية المنفرد بالعبودية وحده، المختص بها، أو: ذلكم المعبود بحق هو وحده الذي رباكم، لا غيره.

التذكير بنعمه
تعالى الكثيرة
العظيمة،
كالإيجاد
والإمداد

التسجيل عليهم
بكفران نعمه،
وتنزيلهم منزلة
الجاهل بها

قصر الصفات
والأفعال الكثيرة
السابقة على
موصوفٍ واحدٍ

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 412، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 458، وابن عاشور، التحرير والتنوير:

334/ 23

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 458، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 334.

نكتة فصل قوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾:

الجمع لله
تعالى بين
الألوهية
والربوبية والملك

قوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾، هو في موقع الخبر الثاني لاسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾، أو هو كلام مستأنف مكوّن من مبتدأ وخبر، وعلى كلا الإعرابين لا يجوز العطف لكمال الاتصال بين الجملتين.

بلاغة التعبير بلام الجرّ في قوله: ﴿لَهُ﴾:

إثبات ملك الله
تعالى للملك
واختصاصه به

اللام في قوله: ﴿لَهُ﴾ هي لام الملك أو الاختصاص، فإنّ الملك كلّ ملك له تعالى دون غيره، مختصّ به وحده، يتصرّف فيه كيف يشاء سبحانه، وهو معنى مفصّل في آيات كثيرة في القرآن الكريم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [البقرة: 17]، وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [البقرة: 120].

غرض تقديم شبه الجملة الخبرية ﴿لَهُ﴾:

إفادة
الاختصاص
والحصر

في تقديم شبه الجملة ﴿لَهُ﴾ على المبتدأ ﴿الْمُلْكُ﴾ إفادة الحصر والاختصاص، فالملك الشّامل للكون ليس لأحد سواه سبحانه، فجميع الكائنات مملوكة له سبحانه، مخصصة به تعالى خلقاً وتصرّفاً⁽¹⁾، فهو بهذا المعنى قصر حقيقي، وبالنّظر إلى كون الملك مشتركاً في الدّنيا من جهة أنّ في الأرض ملوكاً، فهو قصر ادّعائي⁽²⁾، ولا مانع من كون القصر حقيقياً أيضاً على المعنى الثاني؛ لأنّ الذي يؤتي ملوك الدّنيا ملكهم، ويمكّنهم منه هو الله تعالى وحده، حتّى ولو كانوا كفّاراً، والدّليل على هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: 258]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26].

معنى (ال) في ﴿الْمُلْكُ﴾:

(ال) في (الملك)
للجنس

(ال) في ﴿الْمُلْكُ﴾ هي الجنسية الاستغرافية، فالملك كلّ بمعناه

(1) القونوي، حاشية على تفسير البضاوي: 481 / 16.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 336 / 23.

العام الذي يدلُّ عليه لفظ الملك باعتباره اسم جنس هو لله تعالى وحده لا لسواه، أي: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة، ليس لغيره شركة في ذلك بوجه⁽¹⁾.

دلالة التعبير بلفظ ﴿الْمُلْكُ﴾ مادة وصيغة:

الْمُلْكُ: أصله مصدر مَلَكَ، وهو مثَلَّت الميم إلا أنَّ مضمومَ الميم (الملك) قد خَصَّه الاستعمال بملك البلاد ورعاية الناس، وفيه جاء قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26]، وصاحبه: مَلِكٌ، بفتح الميم وكسر اللام، وجمعه: ملوك⁽²⁾، وأمَّا مكسور الميم (الملك)؛ فقد خَصَّه الاستعمال بما يجوز التصرف في عينه بالبيع والشراء والهبة والإعارة ونحو ذلك، وصاحبه مالك، وجمعه مَلَاكٌ، ولما كانت شهوة الملك أشدَّ في قلوب الخلق؛ عبَّرَ عنها القرآن بلفظها الصَّريح، بخلاف الملك، فقد أشار إليه باللام في قوله: ﴿لَهُ﴾، والذي يدلُّ على ذلك أنَّ المالك يمكن أن يتنازل عن ملكه بالبيع والهبة وغير ذلك، أمَّا الملك؛ فلا يتنازل عن ملكه غالباً إلا إذا انتزع منه انتزاعاً عُنُوَّةً، وهذا المعنى هو سرُّ التعبير بالنتزع في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26]، دون التعبير بالأخذ أو السلب، الذي يقابل الإيتاء، فلم يقل سبحانه مثلاً: تؤتي الملك من تشاء، وتأخذ الملك ممن تشاء، بل قال: ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26]، ثمَّ إنَّ كلَّ مالك لا يمكن أن يصير ملكاً بحال، وكلَّ ملك غالباً ما يصير مالِكاً بقوة الملك والسلطان، على الأقل مدَّة ملكه، فلذلك أيضاً عبَّرَ القرآن عن الملك بلفظه الصَّريح، بخلاف الملك، فقد أشار إليه باللام في قوله: ﴿لَهُ﴾.

الملك أشرف من
الملك، وأشدَّ
شهوة في قلوب
الخلق

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 243 / 7.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 336 / 23.

الاحتراس من
وجود ملك
غيره يشركه في
ألوهيته

نكتة فصل قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾:

قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأن سائلاً سأل: ما الذي يترتب على كل ما ذُكر من صفات العلم والقدرة والخلق بالوحدانية والألوهية والربوبية؟ وهل يوجد إله غيره يشركه في كل هذه الصفات، أو في بعضها؟ فكان الجواب: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وذكرها كان من باب الاحتراس من وجود ملك غيره يشركه في ألوهيته؛ لأنه لما كان المختص بالملك قد لا يكون إلهاً؛ قال مثبتاً له الإلهية على ما يقتضيه كل الكلام السابق: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، فهو بمنزلة نتيجة النتيجة⁽¹⁾.

بلغة القصير ونوعه وغرضه في قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قصر حقيقي؛ حيث قصر صفة الألوهية الحقّة عليه سبحانه وحده؛ إذ لا معبود بحقّ سواه، فهو قصر صفة على موصوف، وقد استخدمت الآية أقوى طرق القصر، وهي النفي المدلول عليه بـ ﴿لَا﴾، والاستثناء المدلول عليه بأداته ﴿إِلَّا﴾ لإثبات ذلك.

دلالة التعبير بلا النافية للجنس في قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾:

(لا) النافية للجنس أقوى أدوات النفي؛ لأنها لا تنفي فرداً أو نوعاً من الأفراد أو الأعمال مثلاً، إنّما تنفي جنس ما تدخل عليه من الأفراد أو الأعمال أو الأزمان أو الأمكنة، والنفي بها نفي لعموم جنس ما تدخل عليه دون احتمال تخصيص له بحال من الأحوال، ولذلك لا يدخل على اسمها أي حرف جرّ زائد ممّا يمنع احتمال التخصيص؛ إذ هي بذاتها مانعة من ذلك، ثم إنّ ألف المدّ التي فيها، وفي (ما) النافية تشير إلى امتداد النفي في الزمان المطلق، وهي أقوى في ذلك من (ما)، وبالتالي فهي هنا تنفي استحراق كل

التعبير بأقوى
طرق القصر
لإثبات أنّه لا
معبود بحقّ
سواه

قوة نفي
الألوهية عن
غير الله وامتداد
ذلك في الزمان

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16 / 459.

الآلهة للعبودية الحقّة إلّا الله، وهذا الحكم العام لا يختصّ بزمان دون زمان، بل هو ممتدّ على مدى الزّمان، فلا معبود بحقّ إلّا الله في كلّ زمان وفي كلّ مكان، فلا ينبغي أن تكون العبادة إلّا له وحده.

نكتة تنكير لفظ «إِلَه»:

نكرّ قوله: «إِلَه» في قوله تعالى: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»؛ لإفادة عموم النّفي، فالنّكرة في سياق النّفي من جملة صيغ العموم، وهي في سياق (لا) النّافية للجنس من أقوى صيغ العموم؛ إذ لا يمكن تخصيصها أبدًا بأيّ حال من الأحوال، إلّا بدليل قوي كالاستثناء - كما هنا - وفي ذلك مبالغة في نفي وجود أيّ إلهٍ سواه سبحانه.

بلادة الاستثناء بـ«إِلَّا» في قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»:

الاستثناء في قوله: «إِلَّا هُوَ» استثناء من عموم الإله المنفي، أي: إنّ جنس الآلهة منفيّ إلّا هذا الفرد⁽¹⁾، وإنّما عبّر القرآن بـ«إِلَّا» دون غيرها من أدوات الاستثناء للتأكيد على استحقاق الله تعالى الألوهيّة الحقّة وحده دون ما سواه؛ لأنّ (إِلَّا) أصل باب الاستثناء وأقوى أدواته التي هي نصّ فيه من جهة، ولا تحتل مع الاستثناء معنى آخر كغيرها، وهذا هو سرُّ قوّتها في بابها، ولما كانت النّكرة في سياق «لَا» النّافية للجنس من أقوى صيغ العموم، التي لا يتطرّق إليها احتمال تخصيص أبدًا إلّا بدلالة قويّة كدلالة الاستثناء؛ ذكرت «إِلَّا» التي هي أصل باب الاستثناء، وأقوى أدواته لإثبات الألوهيّة له سبحانه، ونفيها عن كلّ ما سواه، بحيث لا يدخل معه في الاستثناء غيره.

نكتة إثبات الصّмир على اسم الجلالة في قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»:

وإنّما قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، ولم يقل: إلّا الله، مؤثّرًا الإضمار؛ لتقدّم ذكر الاسم الجليل في قوله: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ»، وهو

المبالغة في نفي
وجود أيّ إلهٍ
سواه سبحانه

استحقاق الله
تعالى الألوهيّة
الحقّة وحده
دون ما سواه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 77/2.

وضوح الدلالة
عليه، ورسوخه
في الفطرة،
وظهور آثاره في
الوجود

التعجب من
انصرافهم عن
عبودية الله
تعالى وحده
بعد إثبات
استحقاقه لذلك

كثرة المعاني
الممكنة للكلمة
الواحدة

متفرّع على ما قبله، أعني قوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾،
لكنّه اكتفى في التّفرّيع بأقوى القرائن، وهو ظهوره عند العقل،
ولم يصرّح فيه بالفاء التّفريعية⁽¹⁾ للعلم به، ووضوح الدّلالة عليه،
ورسوخه في الفطرة، وظهور آثاره في الوجود، وعلى هذا فإنّ فائدة
جملة القصر وغرضها النّص على وحدانيته سبحانه في ألوهيّته
دون غيره.

سرّ التعبير بالفاء في قوله: ﴿فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾؛ لترتيب ما بعدها على ما
قبلها، أي: فكيف ﴿تُصَرِّفُونَ﴾ عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها
ودواعيها وانتفاء الصّارف عنها بالكلّيّة، إلى عبادة غيره من غير داعٍ
إليها مع كثرة الصّوارف عنها⁽²⁾، وفي ذلك تعجب من انصرافهم عن
عبودية الله تعالى وحده بعد إثبات استحقاقه سبحانه لها دون غيره.

بلاغة التعبير بكلمة (أنّى):

كلمة (أنّى) لها معانٍ كثيرة، فتكون بمعنى حيث، وكيف، وأين،
ومتى، ومن أين، وتكون استفهاميّة، وشرطيّة، وظرفيّة، ومنه قوله
تعالى: ﴿فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾⁽³⁾، وهي هنا في قوله:
﴿فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾ تحتمل أكثر هذه المعاني، لا سيّما مع حذف متعلّق
﴿تُصَرِّفُونَ﴾ وبناء الفعل لما لم يُسمّ فاعله، أي: فكيف ﴿تُصَرِّفُونَ﴾ عن
عبادته تعالى إلى عبادة غيره؟ أو: من أيّ جهة تصرفون؟ أو: أين
تُصرفون منه تعالى في الدُّنيا وفي يوم القيامة؟ أو: متى تُصرفون
عن الباطل إلى الحق؟ وغير ذلك من المعاني التي قد يكون بعضها
أقوى من بعض بدلالة السياق.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البضاوي: 16 / 481.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7 / 244.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (أنّى)، والزبيدي، تاج العروس: (أنن، أنى).

دلالة التعبير بلفظ الصَّرف:

الصَّرف: رَجَعُ الشَّيْءِ، أو تحوُّله بذاته، أو تحويله بغيره، أو: رُدُّه من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره⁽¹⁾، وكلُّ هذه المعاني يحتملها الذكر الحكيم، أي: فكيف رجعتُم من الإيمان والفترة التي فطر الله النَّاسَ عليها إلى الكفر برغبتكم، أو: فكيف تحوَّلتُم أنتم عنها من قَبْلِ أنفسكم، أو حوَّلكم غيركم من سادتكم وشياطينكم إلى الكفر؟ أو: فكيف رَدَّوكم إليه؟ أو: فكيف بدَّلتُم أنتم دينكم؟

تعدّد معاني
الصَّرف التي
تشمل كلّ أنواع
الكفر والشُّرك

بلادة التعبير بالفعل المضارع ﴿تُصَرَّفُونَ﴾:

عبّر هنا بالفعل المضارع؛ للدلالة على تجدد صرف الكفار من فطرة التَّوحيد إلى الكفر والشُّرك، واستمرار ذلك عبر الزَّمان؛ إذا طال عليهم الأمد.

نكتة حذف متعلّق الصَّرف في قوله: ﴿فَأَنَّى تُصَرَّفُونَ﴾:

المصروف عنه أو إليه هنا محذوف، ومن فوائد الحذف عند البلاغيين إرادة العموم، وفائدته هنا إرادة عموم كثير من المعاني الممكنة، والمنتزعة من فحوى الكلام ودلالة السياق، والتَّقدير: فكيف تُصَرَّفُونَ عن توحيدِهِ، أو: فأين تُصَرَّفُونَ عن عبادتِهِ، وأنتم مُقرِّون بِهِ؟ أو: فأين تُصَرَّفُونَ عن طريق الحقِّ بعد هذا البيان؟ أو: فكيف تُصَرَّفُونَ عَنِ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وأنتم تعلمون أَنَّهُ الرَّبُّ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، والمتَّصِرِّفُ في كُلِّ شَيْءٍ؟ أو: فكيف ومن أيِّ جهة تُصَرَّفُونَ أنتم من صارفٍ ما كائنًا ما كان، عن الحقِّ إلى الضَّلال؟ أو: فكيف ومن أيِّ وجه تُصَرَّفُونَ قهراً عن الإخلاص له إلى الإشراك به بصارفٍ ما، وإن كان عظيمًا؟ أو: فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره؟ إلى غير ذلك من المعاني التي يحتملها السياق⁽²⁾، بقرينة قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

إرادة عموم
المعاني الممكنة
للعلم بها من
فحوى الكلام

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صرف).

(2) الغوي، معالم التنزيل: 132/4، 109/7، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 267/4، والبقاعي،

نظم الدرر: 114/9، 459/16، والنسفي، مدارك التنزيل: 170/3.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،

سورة الزُّمَر من الآية 05 إلى الآية 72

مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2026م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمَر من الآية 05 إلى الآية 72

[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.

مج. 50 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.

ردمك : 4-81-643-9948-978

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمَر من الآية 05 إلى الآية 72.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 4-81-643-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،

الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»